من ملامح الحس النقدي عند البردوني

■ عبد الرحمن مراد

مارس البردوني النقد بشقيه الثقافي والأدبي ،وكانت له عدة إصدارات طوال تاريخه الإبداعي والفكري ، وهو في جل إصداراته النثرية يسعى إلى إعادة تشكيل العلاقات وفق أنساق جديدة متخذاً من الماضي نافذة إلى استشراف المستقبل ولعله كان مؤمناً أو مترجماً للمقولة الفلسفية التي ترى أن هناك صلات محتملة بين العوالم المتخيلة والعوالم الواقعية .

لذلك فنحن نجده في نقده الثقافي يتعامل مع النص الأدبي بوصفه ظاهرة ثقافية ، وكانت جل دراساته تبدأ بالسياق التداولي ، فالسياق المعرفي ، ثم السياق الاجتماعي والنفسي ، ثم السياق الاجتماعي الثقافي ، وكان يربط أهدافه الموضوعية بالنص الأدبي بدءاً بالنص كفعل لغوي ثم بعملية فهمه وتأثيره وأخيراً بتفاعلاته مع المؤسسة الاجتماعية .

وهو بذلك يحاول إخراج النصوص المكونة للبنى الثقافية الجمعية في محاولة لإعادة إنتاج دلالتها مخضعاً إياها للوصف والتحليل والتفسير والاستنطاق والتأويل .

وهذا المذهب في القول نلمح مصداقيته في جل إصداراته النثرية وخاصة كتابه (قضايا يمنية) (وأشتات) ولعل في استعراضنا لبعض عناوين موضوعاته ما يغني عن التدليل والتحليل في هذه العجالة التي لا تروم أكثر من الإلماح إلى رؤيته للواقع وسعيه الحثيث لإعادة تشكل علاقاته وفق أتساق جديدة تلبي طموحات المتغير الثوري لنأخذ مثلاً موضوع (المسئولية والسؤال) (والحركات الثورية مالها وما عليها) (وصور الأحداث في مرايا شعرية) (وثقافة الثورة أو ثورة الثقافة) وما سوى ذلك من الموضوعات التي تستنطق النص الأدبي وتخلق من أنساقه الداخلية علاقات جديدة متوافقة مع المتغير الثقافي والحضاري .

ولا يكاد النقد الأدبي ينفصل عن النقد الثقافي عند البردوني ، إذ في الغالب يتداخلان كما نلحظ ذلك في موضوع (النقد الاجتماعي في الأدب القديم) والنظرة الاجتماعية في نقد سكينه بنت الحسين يقول في موضوعه الأول :

(فابن الرومي على فرط حسه الشعبي كان أعلى الأصوات تنديداً بثورة الزنج التي اكتسحت البصرة في القرن الـ9م ،كان نقده من وجهة ثقافية لأن أولئك الثوار مجموعة أميين لا يملكون بديلاً أفضل :

لهف نفسي عليك أيتها البصرة لهفاً يزيد منه أوامي

دخلوها كأنهم قطع الليل إذا راح مدلهم الظلام

وذلك لأن تلك الحركة كانت لا تقدر أن تبين للناس غايتها وأسباب قيامها ،بهذا تعرضت بعض الحركات للنقد الشعري لعدم فهمها أو لعدم افصاحها عن الانتصار للشعب (أشتات ص 26) .

ولعل الدلالة التي أراد الكاتب إعادة إنتاجها غير خافية على أحد من خلال المثال السابق إذ يكاد القول يفصح عن الحركة الوطنية اليمنية من باب الإسقاط وإعادة إنتاج المعنى .

وقد تطرق البردوني إلى قضايا ربما كانت من القضايا المسكوت عنها في خطابنا الثقافي المعاصر مثل الخصومات الأدبية كما في موضوعه (قيمة أدب الخصومات) من كتابه (أشتات) إذا خلص في هذا الموضوع إلى القول :

قيمة هذا الفن الخصومي معرفة الجديد ومصطلحاته وثورته وإن كانت على حساب جهل القديم أو تجاهله ،فقيمة أدب الخصومات متطورة بتطور الأدب المختصم منذ كان هجاء إلى أن أصبح صراع عقائد سياسية وعداوات فنية تورد حدائق الأدب ولا تورد بالدماء صفحات السلاح لأن هذه العداوات تثير الملكات دون أن تلوث يدها بدم أحد كالعداوات العشائرية والدولية فالنظافة والإثارة أروع قيم أدب الخصومات (أشتات) ص 46).

وأيضاً(قصائد المهرجانات) التي رأى أنها شكلت بحوثاً وملاحظات وأثرت الثقافة وأضاءت تبصر الشاعر لكي تكون قصائد المهرجانات للشعر أولاً وللمهرجانات ثانياً .

وفي ذات السياق كانت له وقفة نقدية من " المؤتمرات الأدبية" التي رأى فيها انها تشكل تعارفاً مكرراً لا معرفة وقد تؤكد صداقات لا ثقافات ، وقال أن العراق اول قطر يتنبه إلى المجيد بين المهملين من أنظمتهم فأنتهج مبدأ الدعوات الخاصة إلى مهرجاناته الأدبية متجاوزاً الاتحادات ووزارات الثقافه لأنها لا تبعث أدباء حقيقيين وإنما تبعث محاسيب ومحسوبين وقال :

المؤتمرات دليل الوعي السياسي ولكنها ليست السياسة ودليل النضج الأدبي ولكنها ليست النضج لأنه لا يأتي منها وإنما إليها) .

ولعل من الضرورة بمكان أن نقف عند موضوع ديمومة المعاصرة وفصول المستقبل إذ يرى أن تعدد ضروب الشعر وتداخل الأصوات بالصوت الواحد أدل على الأصالة الشعرية وعلى استمرار الابتكار ، لأن تعدد المستويات يدل على تعدد التحولات في المناخات الشعرية ويقول (أن التفاني في أدبنا المعاصر هو امتداد من تراثنا الدائم المعاصرة كثورية المتنبي على الروم ونقد أبي العلا التهجمي على كل السياسات والدعوات ، لأن تلك الأعمال إما للفن أو للمسئولية الشعبية امتلكت طاقة الامتداد لامتلاكها لحظتها التاريخية ويرى أن أي عمل مهما كان عظيماً يتعطل بفقدانه لحظته التاريخية ويرى ان الأعمال تتسرمد من خلال امتلاكها لبدء التحول حتى يصبح عصرها كل عصر وموطنها كل الأوطان .

ويقول أن استبصار أحداث الحاضر يتضمن تاريخ المستقبل الذي يتناسج من ذرات الحاضر ، لأن كل حاضر يصوغ مرحلة أو مراحل من تاريخ المستقبل ويرى أنه ما من عهد مستقبلي إلا وهو من صيغة أحداث ما ماضوية عكست تغيراته النظريات الفلسفية أو الأقاويل الشعرية والكتابية ومثل ذلك يتجلى في النص البردوني الإبداعي الذي يمتلك لحظته التاريخية فيصبح دائم المعاصرة والتجدد لأنه جاء من حس بالمسئولية الشعبية ومن استبصار لأحداث الحاضر فيكاد أن يؤرخ لفصول المستقبل كما في نص (ربيعة الشتاء) المكتوب في مايوم 1990م والذي يقول فيه :

ذا جمر صنعا خفت إذ أحرقوا
فيه بخور الشيخ أن تسعلي

إلى أن يقول:

وقال مضن يا العقيم التي
شاءت موانى هنت أن تحبلي
يا بنت أم الضمد قولي لنا
أي علي سوف يخصي علي

ولعل هذه الإشارات التي تومي إلى المستقبل كانت أكثر وضوحاً في فصول التاريخ التالية لكتابة النص ومثل ذلك قوله في نص (محشر المقتضين) المكتوب في صيف 92م والمنشور في ديوانه رجعة (الحكيم بن زايد) الذي يقول فيه:

شكت إلى أمها أم أرى حسنا
يعود حيناً وينسى البيت أحياناً
أخاف تزويجه يا أم ثانية
خافي إذا زوجوه الجب عريانا
أخوك (مران) كم قلنا يعود غدا
وبعد عشرين شهرا عاد جثمانا
لأن من أم صنعا حاملاً قبساً
حسته واستمطرت للأهل سلوانا

مثل هذه الإشارات التي تبصر من المستقبل بين ثنايا الحاضر تكثر في النصوص الإبداعية وهي دالة على نفسها مفسرة بأحداثها تاريخها لكل متأمل حصيف ولعل أحداث 2011م قد كشفت الكثير من أسرار تلك النصوص .

أما مصطلح الحداثة فيرى أنه مصطلح كل العصور لأن نزعة المغايرة وعوامل التجديد من سمات كل العصور وهو ينكر على الحداثة نفي ما قبلها لأنها امتداد منه ويرى أن الفنون بكل مسمياتها لا تتقاطع مهما اتضحت الفروق ... فكم من نماذج فنية حديثة في عصرنا سبقتها أمثالها من النماذج وما زالت تحمل طابع الحداثة رغم بعدها عن الزمن الحديث .

ويقول : ليست الحداثة مجرد اختلاف أشكال ولا هي جمال مجاني بدون مهمات وإنما هي تغيير في النفس كان انعكاساً لتغيير في الواقع الثقافي والسياسي فالحداثة رؤية مقرونة بأسباب مادية في أدب كل عصر (أشتات) ص108.

ويقول :ما من شك أن الإغراق في التجديد منشود ولكن ليس في ظاهر الشكل وإنما في جدة الشكل ، وحداثة الرؤية وفرادة الزاوية التي تمتد فيها وإذا تتبع أي مثقف هذا النتاج الموصوف بالجدة فسوف يجده بين حكمين الحكم الأول يحسب الجدة له والحكم الثاني يحسب غياب الجودة عليه.

لأن غياب الجودة عن الجده غياب عن الأدب كلياً فضلاً عن غياب الحداثة فالجودة شرط الجدة وحداثة الرؤية شرطها معاً وفرادة المنظور شرط في نفوذ الرؤية وبعد مرماها لأن الجدة قوة تغييرية لا تأتي إلا من متغير نفسياً ورؤيويا عن حس بمسؤولية المهمة وبقيمة الحداثة وشرط أدبيتها .

تلك بعض ملامح الحس النقدي للبردوني وهي تومئ ولا تستقصي الأبعاد ولعل الموضوع بحاجة إلى وقفة منهجية لجلاء الصورة وبيانها وحسبنا في هذه العجالة أننا أو مأنا .

البردوني .. كاتب الملحمة السبئية والتغريبة اليمانية

■ عبدالعزيز الزراعي

قلة هم أولئك الشعراء الذين يفطنون إلى كتابة تغريبات أوطانهم، ويستطيعون الإمساك بالخيط الجامع بين فصول تاريخ أجيالهم الضارب في القدم، أولئك الشعراء الذين يمتلكون حساسية مفرطة ووعيا عميقا بمكوناتهم الحضارية العميقة بالثابت والمتحول فيها، القادرون على خلق تواصل وتثاقف بين ماضيهم وحاضرهم، وخلق وعي جمعي مشترك بين الأسلاف والأخلاف لتكوين الهوية القومية لمجتمعهم..

قلة هم أولئك الشعراء.. ولكن لا تخلو أمة عريقة منهم، لأن الأمم العريقة، وإن شهدت ترديا في بعض حقبها، يظل وعيها الجمعي متخثرا في أساطيرها وحكاياتها ولغتها وموروثها الثقافي والشعبي إلى أن تستأنف إنجاب كاتب عظيم يعيد خلقها وحوارها واستنطاقها مخرجا من بين رمادها ذلك الجمر المتقد.

هكذا أنجبت اليمن في عصور ظلامها البردوني شاعرا عظيما يروي ملحمتها ويجمع وعيها المتناثر في صحائف التاريخ ومتون الفقه والسير وأساطير العامة والحكايات الشعبية، ويخلق وعيا جمعيا لأبناء سبأ وحمير، ويؤرخ شعريا لليمن ومأساته وحلم أبنائه وطموحاتهم وحوافر خيولهم وحفرياتهم عبر الزمن، مستنطقا أحجاره وأشجاره وأماكنه عن تاريخ لم تبح به السير:

ماذا يُسِرُّ لسفح
الربوة الحجرُ
كأن كل حصاة
هاهنا خبرُ
هاتيك تعطس
تاريخا وفنقلةً
وتلك تلعن من
جاؤوا ومن عبروا
هل تجرحين
شذا التاريخ ؟
أي شذا
هذا الصفا
حميرٌ هذا
الصفا مضرُ

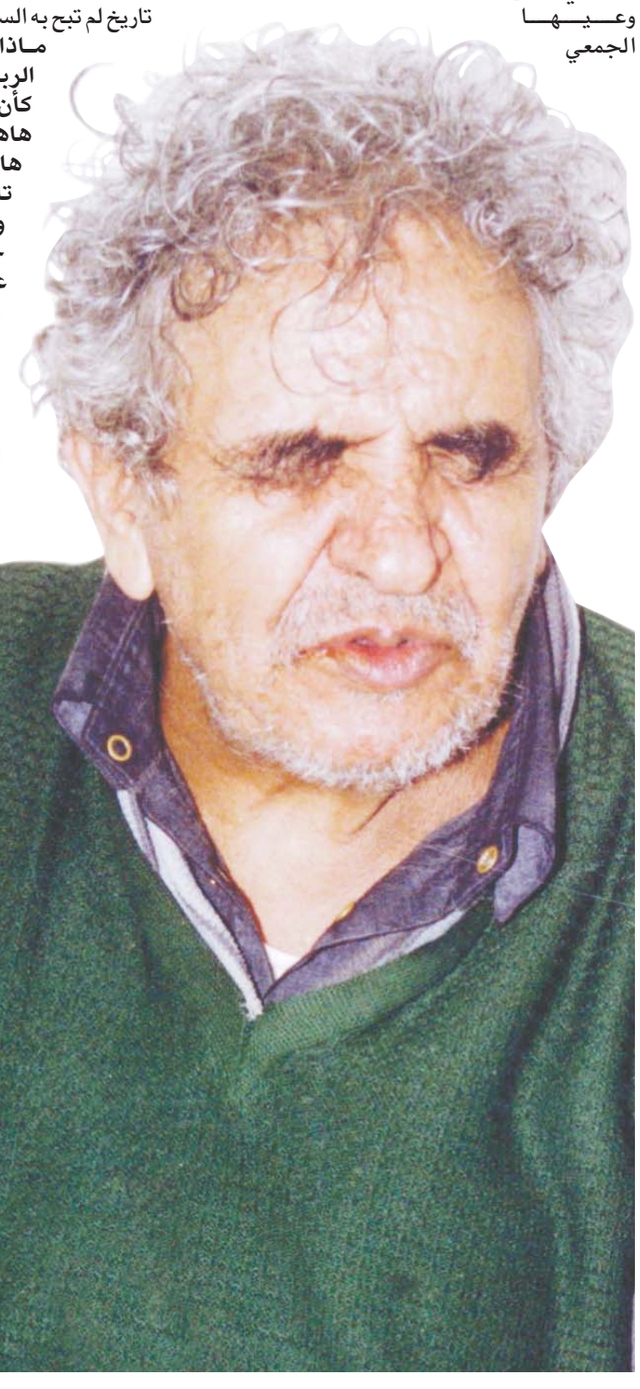

إن المتأمل في شعر البردوني يجد محاولة جادة وواعية لا ستنطاق كل رموز اليمن التاريخية، وكل ملامحه الإنسانية والوجودية المتمثلة في أعلامه وأماكنه، وثقافته المحكية، مستنهضا وعي أبنائه بذلك التاريخ:

أمتْ بعرقٍ إلى ذي
نواس
وعرق إلى جدتي من
هذيل
عصبتْ جبيني
بنار البروق
وفي كل وادٍ
تدفقتْ سيل

في جبهتي من علي الفضل عشر حصى
ومن تجاعيد أروى في يدي حفرُ
أنات بكر غصون فوق جمجمتي
حنين عبد يغوث في دمي سقرُ
وما الذي فيك من (باذان) ؟ أين غفا ؟
لعله ذلك الينبوت والصبرُ
ها أنت تنصبُ تاريخا له عبق
ثان يعاكس ما خطوا وما نشروا

إنه البردوني شاعر اليمن العظيم، وأيقونتها الخالدة.. إنه عراف اليمن والمخرج السينمائي الأول لفلم اليمن الحضاري الطويل والتراجيدي، وكاتب فصول مأساته الكبرى، ذلك الفلم الذي استخدم فيه الردوني كل تقنيات الدراما في صراع وجودي يتداخل فيه الواقعي والسريالي والتاريخي والأسطوري والرومنسية الحالمة، وذاك دأب كل عظيم في نقل وتجسيد حضارة أمته وأزمتها الوجودية، فكما أخرج هوميروس ملحمة اليونان في إلياذته وألهم جميع كتاب السينما بعده، وكما أخرج نجيب محفوظ ملحمة مصر في ثلاثياته، وأخرج درويش تغربة الفلسطينيين وملحمة المقاومة، أخرج البردوني ملحمة اليمن الحضارية وتغريبته في تاريخه الطويل وحزنه الكثيف.. تغريبته بكل تجلياتها التاريخية والمعاصرة فرحا وانكسارا، وثورة واغترابا وتشردا وحنينا:

أنا ابن من ولدوا سرا، وكي يثقوا
ماتوا وما شهقوا كالناس أو سعلوا
كانت تصارع نفسي نفسها وأنا
عنها بتاريخ هذا الصمت منشغلُ
وكنتُ أسردُ عن بلقيس أغنية
مداد من كتبوها العطرُ والعسلُ
هذي الدراما من الأحجار أحرفها
ومن نقيق الغبار الدورُ والبطلُ

إن المتأمل في شعر البردوني يجد محاولة جادة وواعية لا ستنطاق كل رموز اليمن التاريخية، وكل ملامحه الإنسانية والوجودية المتمثلة في أعلامه وأماكنه، وثقافته المحكية، مستنهضا وعي أبنائه بذلك التاريخ:

أمتْ بعرقٍ إلى ذي
نواس
وعرق إلى جدتي من
هذيل
عصبتْ جبيني
بنار البروق
وفي كل وادٍ
تدفقتْ سيل

صهيلٌ دمي، وصليلٌ فمي
لأن جدودي سيوفٌ وخيل

لقد وعى البردوني تاريخ اليمن، وتتبع كل حقبه وأدواره التي قام بها، وخرج من كل ذلك بصورة وتاريخ لم تقله لنا السير ولا مرويات الحكام الغزاة والمستغلين لخيرات اليمنيين وطيبتهم، خرج بصورة فحواها ذلك الحضور التاريخي الإيجابي لليماني العصامي النبيل الذي قوبل بالنكران والتغريب والحرمان.. ذلك اليماني الذي تسلق الآخرون على أكتافه مستغلين طيبته وكرمه وشجاعته، مصورا رحلة هذا الشعب السبئي وحضوره الإيجابي في مقابل تهميشه عبر التاريخ، بدءا بانهيار سده ومسلسل الهجرات والمنافي الذي كان قدره الدائم.. مستعرضا محنة اليمانيين بحكام حاولوا مسخ هويته بالجهل والتدين الأعمى والسلالية المقيته.. واقفا عند دور اليمانيين الريادي في الإسلام وتهميش قريش لهم، وتآمر السقيفة عليهم.. معرجا على تهميش قادة الفتوحات الإسلامية اليمانيين:

يا رؤى الليل يا عيون الظهيرة
هل رأيتن موطني والعشيرة
هل رأيتن يحصبا أو عسيرا
كان عندي هناك أهلٌ وجيرة
يارؤى.. يا نجوم.. أين بلادي ؟
لي بلادٌ كانت بشبه الجزيرة
أخبروا أنها تجلت عروسا
وامتطت هدهدا، وطارت أميرة
وارتدى الفأر ناهديها، وأشتت
هجرة المنحنى خطاها الأخيرة
ورووا أشأمت على غير قصد
ثم أمست على دمشق أميرة
فرأوها وصيفة عند روما
وراوها في باب كسرى حقيرة
نزلت يثربا هشيما فكانت
بالعناقيد والرفيف بشيرة
ومصلى وخندقا وحصونا
ونبيا وسورة مستطيرة
فانتضت في يد السقيفة سعدا
أكبر القوم للأمور الكبيرة
يا قريش اذكري نمتنا جميعا
صحبة سمحة وقربى أثيرة
أنت أمارة.. أنا.. ثم قالوا:
سكتت قبل أن تقول: وزيرة
وجهها غاص في غبار المرايا
واسمها ضاع في الأماسي الغفيرة
من رآني خضت الفتوحات، لكن
عدت منها إحدى السبايا الطريرة

****

هكذا أخبروا، لأن بلادي
خنجر الآخرين وهي العقيرة
رحل النبع من جذوري فهيا
يا هشيم الغصون نتبع خريره
هكذا ما جرى، لأن بلادي
ثروة الآخرين وهي الفقيرة

لقد وقف البردوني كثيرا عند المثنى بن حارثة، وكتب تحولات يزيد بن مفرغ الحميري الذي أهانه معاوية، ووقف عند وضاح وانتصر له من الوليد، ووقف عند عبد يغوث الحميري واقتص له من الشيخة العبشمية، ووقف عن زيد الوصابي وعند ابن علوان والدودحية وأصغى لكل الشعب اليمني زانتصر له من حكامه أئمته الطغاة الجهلة، وصور صراع اليمانيين السياسي معريا الوصوليين وعملاء الخارج، ومقاوما كل تدخل لقوى التخلف، وحمل وحده ضخرة اليمانيين السيزيفية:

من أنت يا ذاك ؟ من لو شم من كندا
صنعا، لأورق فيه البنُ والقاتُ
(سيزيفُ) ناء بصخر واحد وأنا
صخري جدار حديديٌ وغاباتُ
السندبادُ امتطى ظهر البحور.. أنا
تأتي وتمضي على صدري المحيطاتُ

منحازا في كل ذلك إلى اليماني الأصيل العامل والفلاح.. كان بطله هو ذلك اليمني الوطني الهامشي ولكنه الجوهري في بناء حضارة اليمن قديما وحديثا، إنه مصطفى.. ذلك الذي شاد حضارات الآخرين وظل مضيئا في كل حقبه رغم كثافة الليل:

يقولون قبل النجوم ابتديتْ
تضيء وتجتاز لولا وليتْ
وكنت ضحى مأرب فاستحلتَ
لكل بعيدٍ سراجا وزيتْ
يقولون كُنت وكنت وكنتَ
وفي ضحوة العمر أصبحت ميتْ
ولم يبق منك على ما حكوا
سوى عبرةٍ وبقايا صويت
ونونية شبَّها دعبلٌ
وأصداء بائية للكميت
لأن اسمك امتد فيهم رأوك
هناك ابتديت وفيك انتهيتْ
فأين ألاقيك هذا الزمان
وفي أي حقل وفي أي بيتْ
ألاقيك أرصفة في الرياض
وأوراق مزرعة في الكويتْ
ومكنسة في رمال الخليج
وشت عن يديك وأنت اختفيت
واسفلت أسواق مستعمر
أضأت مسافاتها وانطفيتْ
ورويتها من عصير الجبين
وأنت كصحرائها ما ارتويت
ولكن إذا متَّ، ينبي العبير
على ساعديك وعن ما ابتنيتْ

ولعل في قصيدته أمين سر الزوابع ما يوضح هذا بجلاء، فلقد كان أمينا حقا لأسرار هذا الوطن العريق الحزن المليء بالصراع السياسي، وكان سندبادا وجواب عصور، وشاهدا على كل حقب التاريخ التي مر بها اليمن.. لقد كان الشاهد الذي لم يخش أحدا، والأمين الذي باح بكل شيء للأجيال من بعده في ملحمة شعرية فريدة في تاريخنا العربي والإنساني...

فهل أدركنا تلك الملحمة، هل قرأناها وفككنا شفرتها؟ هل أصبحت وعيا جمعيا لأبنائنا في المدارس؟

هل انتقلت تلك الرؤية إلى إعلامنا، وإلى جامعاتنا؟ هل البردوني حاضر فينا نصا لا شخصية؟ هل تلقينا ملحمته كما أراد؟ هل نحتفي به اليوم ونحن ندرك الكثير من شعره ونستشهد به ونتناص معه، وهل نعيه اليوم كما وعى هو نصوص تاريخنا (أي نواس.. بشار.. وضاح اليمن.. علي بن زايد.. الدودحية.. عبد يغوث الحميري.. الخ)، هل أصبحت مقولاته مصكوكات في المعجم الشعري ونسقا ثقافيا يستطيع أن يحيل عليه الشاعر الشاب دون ان يتسم شعره بالغموض وبسهولة مرجعية لا تتطلب تذييلا وهوامش كما نتناص مع مطر السياب، هل ثمة قصيدة له أصبحت مشهورة شهرة المثل في الشعب؟ أظن هذا لم يحصل بعد، وأنه يحتاج وقتا طويلا وجهدا كبيرا منا معاشر اليمانيين.. وأظن أن البردوني إذا لم يحظ بهذا الشكل فإننا سنكون دفنا شاعرا عظيما بين دفتي ديوانه في المكتبة.. شاعرا ربما لن تنجب اليمن مثله في المستقبل القريب ولا البعيد ايضا.

إن أي شاعر فلسطيني أو عربي يستطيع اليوم الإحالة إلى مقولة او بيت شعر أو عنوان ديوان لمحمود درويش بكل يسر وسهولة ،دون أن يذيل نصه بهوامش توضح مكان الإحالة لدرويش، لأنه حاضر على الأقل بين مثقفيهم بنصوصه أكثر من شخصه، وهذا ما يريد كل شاعر، وذلك بفضل المكنة الإعلامية الفلسطينية ودور نشرها المحترفة، وحنجرة مارسيل خليفة وأميمة الخليل..فكم هي المنشورات للبردوني؟ وهل ثمة مختارات شعرية له، هل كلفت وزارة الثقافة نفسها عناء اختيار أجمل ما كتبه البردوني في كتيبات صغيرة تسهل للشعب شراءها وحملها وتداولها، وكذا حفظها وترديدها، هل كلف فنان نفسه عناء تلحين وغناء مقطوعات للبردوني تردها الإذاعة أثناء قيلولة الناس وأوقات شجنهم واستعدادهم الروحي لتذوق الجمال، ليدخل البردوني إلى أرواح اليمنيين ويصبح نسقا ثقافيا وفنيا؟

هل عرفتم لماذا حضر درويش في وجدان الفلسطينيين، وحضر نزار في وجدان الشاميين، وغاب البردوني؟ هل عرفتم لماذا حضر مطر السياب في شعر العراقيين ووجدانهم، وحضر ناي جبران في وجدان اللبنانيين، وحضرت أطلال ناجي في مسامع المصريين؟ حين نجيب عن ذلك يكون البردوني حاضرا بيننا وفي شعرنا بكثافة.